Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتركها أطلالاً دارسة لا تكاد تُبين عن مجد الذاهبين، ولا تحسن الحديث عن أُباة الضيم الراحلين، الذين سلبهم حق الحياة ليستأصل شجرة العلم بقتلهم فتدين له الدهماء.

ومن العلماء الأجلاء الذين قتلهم التتار الإمام الفرغانى «سنة ٦١٦ هجرية»(١) والعلامة محمد الزهرى «سنة ٦١٧ هجرية» (٢).

وجثم هذا الكابوس على صدر الدولة الإسلامية اثنين وعشرين عامًا.

ولما تنفس الشرق الصّعداء بوفاته «سنة ٦٢٤ هجرية» منى بحفيده «هولاكو» الذى كان أشد منه قوة وأكثر بطشا، ولم يقنع ببلاد فارس تدين له وتخضع لسلطانه بل قصد بالسوء بغداد معقد آمال المسلمين فى كل مكان وموئل علمهم الذى إليه يهفون، وموطن عزّهم الذى به يباهون.

شخص إلى المدينة وزحف على بغداد فلما كان منها قاب قوسين بسط يد الختل ونشر أحبولة الخديعة للخليفة المستعصم، ودعاه مع أماثل المدينة وعلمائها فأثّر فيهم بهتانه، وانطلى عليهم زوره، وأتوا إليه مذعنين فأمر بذبحهم أجمعين.

ثم هجم على دار الخلافة فاستولى على ما بها، وقتل أهلها، وسبى أطفالها، ثم أباح بغداد أربعين يومًا كانت القاضية على ما فيها من تراث ثمرته فى خمسة قرون، ظلت فيها عاصمة الإسلام ومحط رحال العلماء والأدباء.

وتبخر نتاج العقول وعصارة الأذهان فى هذا المدى الواسع والأمد البعيد، وكان ذلك النتاج جدّ عظيم لما صحبه طول مدة الخلافة فى هذه المدينة من همة فائقة فى إحياء العلوم، وجهود موفقة فى خدمة الدين، تحقيقًا لرغبة الخلفاء واستجابة لداعى الأمراء.

محا كل ذلك بين طرفة عين وانتباهتها، وأتى على الكتب التى كانت أثمن ذخائر المدينة وأبادها حرقًا وإغراقًا حتى لقد تغير ماء دجلة من فرط ما قذف فيه من كتب تراكم بعضها فوق بعض، فكان منها برزخٌ عبر عليه النهر جُند ذلك الجبار العنيد.

ولقد تطلع هذا الغاشم إلى ما وراء بغداد فطمع فى التهام الشام ويمم شطرها، وهى يومئذ مستقر حكم المماليك الذين ردوه على أعقابه؛ إذ كانوا أولى قوة وأولى بأس شديد.

---

(١) بغية الوعاة ص ٢٨٥ .

(٢) بغية الوعاة ص ١١ .